الغريب

للكاتب العالمي ستيفان زفايج

ترجمة : فاروق يوسف اسكندر

حينما دخل ضباط الشرطة البرازيلية ـ ذات يوم من سنة ١٩٤٢ ـ منزلا في بتروبوليس ، الضاحية لريودى جانيرو ، راعهم أن يروا جثتى الكاتب النمساوى اللامع ستيفان زفايج وزوجته . وكان على مائدة هناك في الشقة كوبان يفوح منهما رائحة ضعيفة خلفها السم الذى انتحرا به . وخطاب ضمنه زفايج شكر الشعب البرازيلى على ما لقيه منهم من كرم . ثم تسجيل في تقرير حزين لبعض الأسباب التى دعته وزوجه الى أيثار الرحيل عن الدنيا : « لقد رأيت بلدى ـ موطن لغتى ـ تندحر بينما ـ أوربا ـ موطنى الروحى .. تدمر نفسها بنفسها » .

وواضح أن ستيفان زفايج كان ضحية الحرب ، لايرى في الايام السوداء بارقة امل في هزيمة النازيين وعودة السلام المثمر للعالم . ومنذ شباب زفايج المبكر كان يجاهر بخصومته للحرب وفظائعها . كان رجلا حساسا ، شغوفا ، وفي هذا ما يكفى لايضاح مقته لتخريب الحروب . ولكن زفايج أيضا كان من رجال الادب الاوربيين رأى اصوله الثقافية تنتمى الى الثقافة الاوربية جميعها ـ فقد اسمى اوربا وطنه

الروحي ـ ولذلك لم يكن ليصدق أن هناك فوارق قاطعة فاصلة بين شعوب اوربا تجعلهم يتحرش الواحد منهم بالآخر .

وخلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الاولى بان لزفايج أن اوربا تنساهب ثانية لحرب تدمر اكثر مما قد دمرت قبل ، ومثل كثيرين غيره من الكتاب والفنانين الأوربيين ، نفى زفايج نفسه من القارة ، وراقب كيف ان بلده النمسا توطأ باقدام النازى الالماني ، وكيف ينتشر الخرب بين بلدان أوربا الواحدة تلو الاخرى فيغمرها ، وليث حينا في البرازيل . وبعد قليل من اندلاع الحرب العالمية الثانية ، قصد البرازيل وفي الحقيقة انها سخرية مرة ـ لدى الاوربي المثقف ـ أن اوربا التي ادركت من الثقافة ارقى ماوعته ذاكرة انسان ، فرض عليها ايضا ان تقاسي طويل زمن من أهوال وبلايا الحرب اكثر مما قاسته بقعة من بقاع المعمورة . لقد خدمت العبقريات الاوربية العظيمة ـ حينا ـ غايات الهدم اكثر مما خدمت غايات البناء ، وخدمت غايات التدمير والعذاب الانساني اكثر مما خدمت الفن والتجارة ، ومهما يكن من معنى لهذا التناقض فانه بين ان شعوب اوربا قد عاشت غالبا ـ وليس باختيارها ابدا دون ماساة أو حزن ـ حياة الحرب .

ان الشعوب تدرك في الم وقوة مدى تاثيرات الحرب على عقائدها وعواطفهـا الشخصية وخبرات الشعوب تلك في الحرب قد عبرها غالبا الكتاب الغربيون الذين عبروا عنها في ادبهم .

وفي قصة ستيفان زفايج التي تلي ، يقص المؤلف خبرة مخزية لرجل بسيط اسر في اعصار الحرب العالمية الاولى المفجع ، وبطل القصة ـ ولو انه ساذج وابكم ـ غير ان القارئ يستطيع أن يدرك العواطف التي حركته في مجاهدته غير المثمرة لحرب لا يريدها ولا يستطيع منها فكاكا .

المترجم

ذات ليلة من صيف سنة ١٩١٨ لمح صياد في قاربه بحيرة حنيفا ـ عنبر يعيد من المدينة الصغيرة (سوبس) في فيلتاف ـ شيئا غير عادي على سطح الماء . وحينما قرب منه رآه طوفا من كتل خشبية قد جمع بعضها الى بعض بلا تهذيب . وفوقها رجل عار يحاول في غير مهارة أن يجدف الى امام بواسطة لوح خشبي . كان المجدف متهوكا يرتجف من البرد، فاشفق عليه الصياد، وأعان هذا المرتعش ، مسافر البحر فجذبه الى قاربه وعطاه بعض ثيابه ، وتلك كانت كل ما لديه من وسائل العطاء . ثم حاول أن يفاتحه في الحديث ـ ولكن الغريب المنقذ ـ وقد رقص في قاع القارب ـ اجاب بلسان لم يستطع الصياد ان يفهم منه حرفا . فاضرب الصياد صفحا عن محاولته الحديث . وجذب شبكته التي جاء ليعالجها ثم جذف بضربات ثابتة ووجهته الشاطىء . وحينما بدت معالم الشاطىء تتضح مع ضوء الفجر المتجمع، احد الرجل الغريب يبدو أكثر انتباها وتراقصت ابتسامة على الفم الكبير الذي كمن ذقنه تحت شارب غزير عنبر مشذب ولحية . وأخذ يصيح مرارا وهو يشير تجاه الشاطىء ـ بين المتهلل والمتهلل ـ بلغة جرسها مثل (روسيا) وعلت نعمة ثغره وكثر فرحه بينما القارب يقترب شيئا فشيئا نحو الأرض ـ وفي النهاية رسا القارب على الشاطىء .

وجرت جماعة السمر العاملات لدى الصياد للمعاونة في انزال صيد الليل الى الارض ثم ما لبثن أن تعرفن وهن يصحن مفروعات ، ومتلهفن مثل عذارى روسيكا قديما حينما ابصرن اليسس الغريب ، ولدى انتشار الاخبار العجيبة التي اتى بها الصياد من البحيرة ، تقاطر رجال القرية عند الشاطىء ، ومن بينهم عمدة القرية ، واستدعى حضور هذا الشخص الخطير ذي الاعتبار ، الملء بمقام وظيفته ، الى الدهن جميع التعليمات التي صدرت عن مراكز قيادة الجيش خلال السنوات الاربع الاولى من الحرب وقد اعتقد العمدة أن هذا القادم الجديد ينبغي أن يكون جاريا من الشاطىء الغربي للبحيرة . حاول على الفور أن يبدأ معه استجوابا رسميا ، ولكنه مالبث سريعا أن أحقق خيبة عمدة عويصة وهي أن احدهما لايفهم عن الآخر ـ ولم يجب الغريب ـ وهو يلبس سروالا ومعطفا جاء بهما لهاحد القرويين ـ باجابة ما اكثر من تساؤل ـ روسيا ؟ روسيا ؟ ملفوظة في توسل ، بل تعلب عليها نغمات متهدجة . أوسع العمدة ـ وقد تضايق شيئا ما ـ خطاه تجاه دار العمودية مشيرا ـ في حركة آمرة ـ الى اللاجيء أن يتبعه . وبين ثرثرة الصغار الذين تجمهروا الآن أخذ الرجل الخافي ـ تهدل عليه الثياب المستعارة ـ ما أمر به ـ وهكذا جاء الى دار العمودية حيث وضع في مكان آمن .

لم يبد اعتراضا ، ولم ينطق بكلمة ، ولكن وجهه كساه الحزن ـ وقد طاطأ من رأسه هاربا كما لو كان متوقعا للطمة . وسرعان ما تسربت أخبار الصيد العجيب ـ الذي جاء به الصياد الى العادق المجاورة ـ سر دور اليسار من الزوار اذ سمعوا بشيء سيجيئهم على اتفاق ساعة .. فتواعدوا في اعداد كبيرة ليتفقدوا الرجل المتوحش ! قدمت امرأة اليه بعض الحلوى ، ولكنه كالنسناس المرتاب رفض ان يقربها ـ والتقط راثر بآلة تصويره صورة حاطفة ، واحتدالجمع المتجمهر حول ـ الرجل الغريب ـ يتحدث في مرح .

وفي النهاية ظهر على المسرح مدير احد الصادق الكبرى المجاورة - وهو رجل قد عاش في بلاد كثيرة ، وكان يجيد عدة لغات . واختير الغريب الذي صار الآن مرتكبا طلبا ، تلمة بعد أخرى الالمانية ، والايطالية ، وأخيرا بالروسية

ولدى اللفظة الاولى من الروسية بدا الرميل العاشق وقد شد عزمه فجأة ، وأشرقت طلعته البسيطة الطيبة عن ابتسامة عريضة

وعلى الفور ، وبهيئة الواثق ، ابتدأ يسرد حكايته - كانت طويلة ومشوشة ولم تكن حوادثها كلها واضحة لدى المترجم الذي ساقته الصدفة ، ولكن القصة تجري أساسا كما يلي

« انه قد حارب في روسيا » ويوما ما جمع هو وآلاف آخرون في عربات السكة الحديد، وقطعوا مسافات شاسعة بالقطار ، ثم ركب الجميع بعد سفينة قامت برحلة أطول عبرت فيها بحارا شديدة الحرارة حتى أن عظامه قد شويت - حسب وصفه هـو - وأخيرا نزلوا الى البر لرحلة أخرى بالقطار ، وعقب مغادرتهم القطار بعث بهم على العبور لاقتحام جبل . وعن هذه الحرب فانه لم يستطع الا ذكر القليل ، لانه ما أن بدأت الواقعة حتى أصيب برصاصة في قدمه .. »

وكان من الواضح بعامة لسامعي القصة عند ترجمة مدير الصندق لها - جملة بعد جملة - أن هذا اللاجئ ينتمي الى احدى الفرق العسكرية الروسية المرسلة عبر سيبيريا ، والمسافرة بحرا الى فرنسا من فلاديفوستوك . واقترح حب الاستطلاع بالشعقة ، حتى أراد كل واحد أن يعرف ما الذي حدا بالرجل أن يبدأ رحلته المحفوفة التي قادته الى البحيرة . وبابتسامة صريحة لاتخلو من مكر ، أوضح الروسي أنه حين كان يعالج من جراحه في المستشفى سأل أين توجد روسيا ؟ فحيلت له جهة وطنه عموما وحالما صار قادرا على المشي هرب ، واسترشد في طريقه لجهة موطنه بالشمس والنجوم - وسار بالليل ، وبالنهار . - كان يختفي من أكوام القريش ليروع من الدوريات العسكرية وعن الطعام فانه كان يجمع الفاكهة ، أو يتسول رغيف خبز من هنا او هناك وفي النهاية بعد سير عشر ليال أدرك هذه البحيرة .

والآن صارت روايته أكثر اضطرابا، لقد كان فلاحا من سيبيريا - يحسب أن وراء موطنه بحيرة بايكال . ورأى أنه يستطيع العبور الى الشاطئ الآخر من بحيرة حيثما الذي تصور أنه يعني أن يكون (روسيا) - لقد سرق لوحين من أحد الاكواخ . واتخذ سمته عليهما الى أسفل مستخدما لوحا كمجداف وسالكا طريقه بعيدا خلال البحيرة . وهناك عثر به الصياد . وانهى قصته بالسؤال المشوق

ـ هل يمكنني هذا الوصول الى وطني؟

أثارت ترجمة هذا السؤال عاصفة من الضحك لدى أولئك الذين كان أول ماتبادر الى ذهنهم عنه أنه مسكين أبله . - ولكن فكرتهم الثانية لونتها الشفقة عليه ، فساهم كل بقليل جمعوه للهارب المستجير وانه ليكاد يبكي .

واستدعوا من (مونتريه) تلميذا ضابط شرطة ذو رتبة كبيرة ، وحين مقدمه كتب تقريره الرسمي دون ما صعوبة . ولم يكن المترجم الذي أتاحته الصدفة بعيدا عن أعوار السيبيري ولكن أيضا نقص حظ ذلك السيبيري التام من الثقافة ، وضع حاجزا بين عقله وبين عمل اولئك الفرنسيين . لقد كان من القليل الذي يعرفه عن نفسه أن اسمه بوريس . أما لقب أسرته فلم يستطع أن يدلي به . كان يعيش مع زوجته وأبنائه الثلاثة على بعد ثلاثة وثلاثين ميلا من البحيرة البعيدة ، وكانوا عبيدا للأمير متشرسكي (هو يستخدم لفظة العبيد مع أنه مضى أكثر من نصف قرن على زوال العبودية من روسيا) .

ثم تلا ذلك مناقشة مصيره ، ووقف هو بين المجادلين باكتاف متحادلة ووجه حزين قال بمفهومه انه يتمنى أن يرسل الى السفارة الروسية في (برن) . ولكن معارضه آخرون بأن هذا سيؤدي الى أن يساق ثانية الى فرنسا .

وصرح موظف الشرطة انه من الصعب تقرير ما اذا كان الروسي يعامل كهارب أو يعتبر ببساطة أجنبيا تلا بطاقه شخصية ، أما الضابط المنوط به حراسة هذه المنطقة ، فكان متأهبا ليوضح لهما ان هذا الضال ليس له بالتأكيد اي حق في المطعم والمسكن على نفقه السلطات المحلية . وتدخل رجل فرنسي محتدا ، قال :

ـ ان حالة هذا الهارب الشعبي واضحة للعيان . دعوه يؤدي عملا ما أو أرسلوه ثانية عبر الحدود .

واحتجت امرأتان بأن الرجل المسكين لم يكن ليلام بسبب مأساته ، أنها لجريمة ان يحتطب الناس من مسارلهم ويرسلوا الى ارض أجنبية .

وأوشكت معارك سياسية أن تقع حتى أعلن سيد دسركي عن عزمه على أن يحول هذا الغريب هذه الاسبوع التالي الذي تناقش فيه السلطات المحلية الامر مع السفارة الروسية .

وقد وضع هذا الحل ـ غير المتوقع ـ نهاية لحيرة الرسميين بشأن خلافاتهم وبينما كان الجدل محتدما ، طلت عيون الهارب في استحياء مركزة على شخصية مدير الصدق ، اذ أنه الانسان الوحيد في هذا الخليط الذي باستطاعته ان يعرفه مصيره ، وبدا بهيئته الشاحبه أنه فاهم مدى التعقيدات التي أثارها قدومه . والآن حين خفتت صوتا الاصوات ، رفع يديه المشبكتين قبالة وجه مدير الصدق ـ في ضراعة ـ مثل امرأة تركع مصلية أمام صورة قديس . وقد تأثر الجميع من هذه الحركة ، وأكد له المدير محاولا أن عليه أن يطمئن بالا تماما ، ذلك انه سيسمح له هنا بالبقاء هنا . ولن يؤذيه أحد ، وانه سيجاب الى طلباته في مصيبة الغريبة . وأراد الروسي أن يقبل يد المدير ، ولكن الاخير لم يسمح له بتلك الطريقة غير المألوفة في التعبير عن الامتنان . وأخذ يعد اللاجئ الى الصدق حيث المأكل والنوم مؤكدا مرارا أن كل شيء سيسير بمثل ما يرام وبهذه رأس أخيرة حياه المدير تحية الصديق المودع متجها طريقه ثانية الى صدقه ، حدق الهارب في رسم المدير وهو يساعد وقد شحب وجهه مرة أخرى لدى افتقاد الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يفهمه وبالرغم من أولئك الذين كانوا يرحبون

سلوكه في متعة ، فانه ظل يتتبع بعينيه المدير حتى اختفى هذا الصديق في فندق باعلى الجبل ، والآن لمس واحد من المتفرجين الروس بلطف على ذراعه ثم أشار له الى باب الفندق . دخل الهارب برأس معلقة مقامه المؤقت ، وأرشد الى حجرة الشراب فاراح نفسه على كرسي ، وشمت ، فرحبت به المضيفة وناولته كأس (براندي) ، وهنا انفق بقية الصباح مطرقا في كآبة .

كان اطفال القرية يديمون مسارقة النظر اليه من خلال النافذة ، يضحكون ويصيحون به من وقت لآخر ، ولكنه لم يلق لهم بالا . نظر العملاء اليه في فضول ، ولكنه ظل طول الوقت جالسا وعيناه مثبتتان على المائدة في خجل ورهبة . وحين أعدطعام الغداء ، امتلأت الحجرة بالناس الذين يتحدثون في مرح لكن لم يستطع الروسي أن يفهم كلمة واحدة من أحاديثهم . وأنه ان يدرك أنه غريب بين غرباء ، وانه عمليا اصم أبكم وسط اناس يستطيعون تبادل الآراء بطريقة حية . كانت يداه ترتعشان حتى أنه صعوبة ما تناول حساءه ، وسلكت دمعة طريقها فوق خده ، ثم سقطت في ثقل فوق المائدة . ونظر حواليه بتهيب لحظ الصيوف الآخرون حزنه ، فران الصمت على الجميع . كان الجميع يعبره واحد رأسه المشعث يدير شيئا فشيئا من المائدة الخشبية السوداء . وليس في حجرة الشراب الى المساء .

جاء اناس وراحوا ، ولكنه لم يكن يعرفهم أو يعرفونه وواصل جلوسه محتميا بالمدفأة مريحا يديه على المائدة .

ونسي الجميع وجوده . وعند الغسق نهض فجاء ومضى دون أن يلحظ أحد ذهابه ، ومثل حيوان أليف صعد في الجبل متثاقلا شطر الفندق ، وركز نفسه ـ وبيده الطاقية ـ خارج الباب الرئيسي ووقف هناك ساعة بطولها دون أن يسترعي انتباه أحد .. واخيرا اختفى هذا الشكل الغريب ، الحامد والاسود ، أبدع الشجرة الصنوبرية بجذوعها امام مدخل الفندق الساطع الاضواء ـ انتباه واحد من البوابين ذهب باحثا عن المدير

.. ورفعت البهجة ثانية على وجه السيبيري عند كلمات مدير الفندق الاولى اذ مثاله في حنان

ـ ماذا تريد يا بوريس ؟

قال الهارب بتردد

ـ معذرة يا سيدي ، كل ما أريد أن اعرفه هو هل يمكنني أن أعود لبلدي او لا ؟

قال المدير متشمما

ـ طبعا يا بوريس يمكنك ان تذهب الى بلدك .

ـ غدا ؟

واتجد المدير صمتا أكثر حدية ، فان الكلمة قيلت بصراحة أزالت البسمة

ـ لا بابوريس ، ليس بعد .. حتى تنتهي الحرب .

ـ هكذا سريعا ؟ .. ومتى تنتهي الحرب ؟

ـ الله اعلم ، ولا أحد يستطيع أن يعلم .

ـ وهل ينبغي أن أنتظر طيلة هذا الوقت ؟ ألا أستطيع الذهاب سريعا ؟

ـ لا بابوريس .

ـ هل بلدى بعيد من هنا ؟

ـ نعم

ـ مسيرة أيام كثيرة ؟

ـ أيام كثيرة .. وكثيرة

ـ ولكنى أستطيع أن أسير هنالك، فأنا رجل قوى ولى أنصب

ـ لا تستطيع ذلك يابوريس ـ هناك حدود أخرى عليك أن تعبرها قبل الذهاب لبلدك

وبدا متحيرا

ـ حدود ؟

لم تكن الكلمة ذات معنى عنده . ثم استمر بالحاحه المدهش قائلا

ـ ولكنى أستطيع أن أعوم خلفها !

وبمشقة كتم المدير ابتسامة لائحة ، ولكنه كان حريصا لمارق الرجل فقال برقة

ـ لا يابوريس لن تقدر على أن تفعل ذلك ، فان الحدود معناها دخولك بلد أجنبى ، والناس الذين يعيشون هناك لن يدعوك تمر .

ـ ولكنى لن أؤذيهم بشىء فلقد أطرحت بندقيتى .. فلماذا يرفضون أن يدعونى أذهب لزوجى حين أستحلفهم لاجل المسيح أن يتركونى أمر .

وصار وجه المدير جامدا كئيبا وقال

ـ لا لن يدعوك تمر يابوريس، ولاجل من أجل المسيح ، فاننا فى عصر لا يقيمون فيه وزنا لكلمات السيد المسيح

ـ ولكن ماذا على أن أفعل يا سيدى ، لا يمكننى البقاء هنا ، فلا أحد يفهم عنى وأنا لا أفهم عن أحد .

ـ ستتعلم الفهم عنهم مع الزمن .

هز رأسه وقال

ـ لا ياسيدى لن أستطيع التعلم أبدا انا أستطيع فقط فلح الأرض ، ولا أكثر فماذا يمكننى أن أفعل هنا ؟ .. انا أريد الذهاب الى بلدى . أرنى الطريق .

ـ ليس هناك أى طريق يابوريس .

ـ ولكن ياسيدى لن يستطيعوا منعى من العودة ثانية لزوجى وأولادى ، فلم أعد بعد جنديا .

ـ نعم يابوريس انه يمكنهم أن يمنعوك .

ـ ولكن القيصر بكل تأكيد سيساعدنى .

كان هذا تفكيرا مفاجئا خفقت له جوانح الهارب بالامل . وفى ذكره لاسم القيصر وضحت نعمة التوفيق الزائد .

ـ ليس هناك قيصر الآن يابوريس ، فقد عزل .

ـ ليس هناك قيصر الآن ؟!

وحدق بسلاهة فى وجه المدير .. هاقد خبت ومضة الامل الاخير ، وبهت بريق عينيه فقال مكدودا

ـ وهكذا فلن أستطيع الذهاب لبلدى

ـ ليس الآن .. يمكن أن تنتظر يابوريس .

ـ وهل هذا سيطول ؟

ـ لا أعرف .

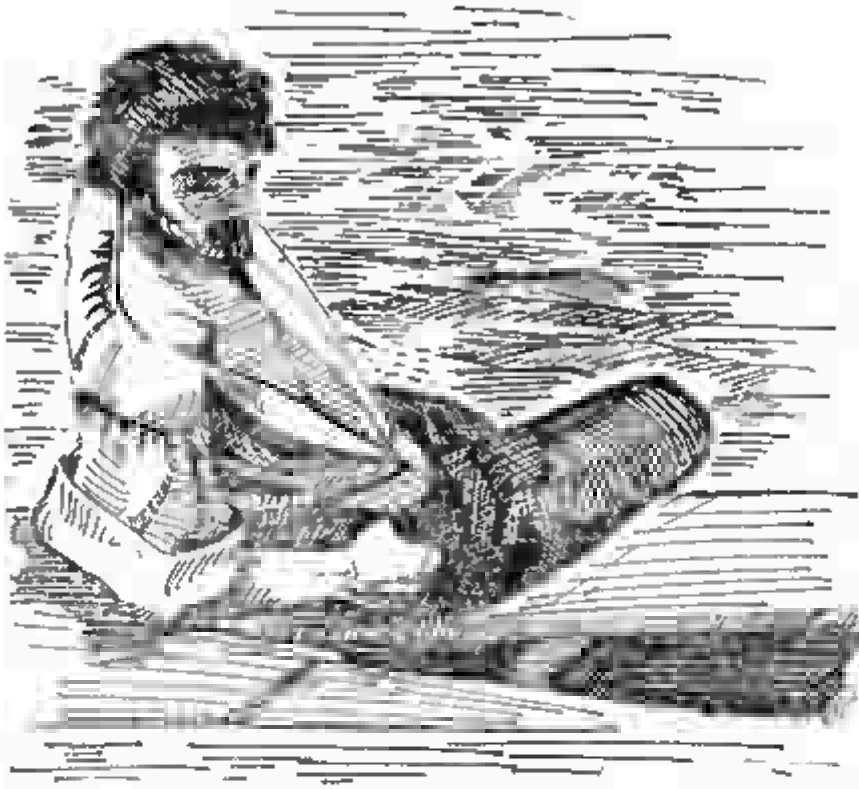

وبدا الوجه فى الظلام يرداد قتوطه

ـ لقد انتظرت طويلا ، كيف انتظر أكثر ، ارنى الطريق وساحاول ٠

ـ ليس هنـاك طريق ياتوريس ، سيقبضون عليك عند الحـدود ، امكث هنا ـ وساجد لك شيئا تعمله ٠

قال متلعثما

ـ انهم لايفهمونى هناوانا لاافهمهم ٠٠ انا لا استطيع العيش هنا ٠ساعدنى يا سيدى ٠

ـ لا استطيع ياتوريس ٠

ـ ساعدنى ياسيدى لاجل المسيح ٠

ـ لا أستطيع مساعدتك ياتوريس ، قال الناس لم يعد بامكانهم تعـبـد أن يعين أحدهم الآخر

وظل الاثنان يحدج أحدهمـا الآخر بعينيه ٠٠ قتل توريس طاقيتـه بين أصابعه ثم قال

ـ لماذا أحدونى بعيدا عن بلدى ؟ لقد قالوا يبغى أن تحارب من أجل روسيا والقيصر ٠٠ ولكن روسيا بعيدة عنى ، والقيصر ٠٠ مـادا قلت أنهم فعـلوا بالقيصر ؟

ـ لقد عزلوه ٠

أعاد الكلمة بعنوص

ـ عرلوه !

ـ ماذا افعل يا سيدى ؟ يمكن أن أذهب لبلدى ؟ ان أولادى يسكون من أجل ؟ لا استطيع العيش هنا ، أعنى يا سيدى .. أتوسل اليك أن تساعدنى ساعدنى ـ والا فليس لى أمل ؟

ـ لا استطيع يابوريس ؟

ـ ألا يستطيع أحد أن ياخذ بيدى ؟

ـ لا أحد الآن ..

وعلق الروسى براس ثابتـــه ـ وقد ازداد هما ـ وفجأة تكلم فى نعمـــه كئيبة

ـ أشكرك يا سيدى ..

وبعدئذ استدار على عقبيه ومضى .. سار بطيئا الى أسفل الجبل .. وراقبه المدير بينما هو يمضى ، وعجب اذ لم يدخل الصدق .. بل انه مضى فى طريقه أسفل الدرج المفضى الى البحيرة .. وقر المترجم شـــعيق القلب زفرة ثم عاد ثانية لعمله فى الصدق ؟

وكما شاءت الصدفة أن تكون ذات الصياد عينه الذى أنقذ السيبرى حينما من البحيرة .. عثر على جثـــة الغريق العارى فى الصباح .. لقد طوى الهارب بعنايه ما اســـتعاره من معطف وسروال ووضعهما مع القمعة على الشاطئ .. ثم انطلق يسير فى الماء ، عاريا كما أخرج منه فى المرة الاولى ؟

لم يكن الغريب معروفا ليقام على قبره نصب تذكارى ، بل نصب هـــالك صليب خشبى بلا اسم ؟